الجاحظ وكتاب العين

أ.م.د. عبد الجبار عبد الامير هاني

كلية التربية – ميسان – جامعة البصرة

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أمام الهدى والبيان نبينا محمد وعلى أله وصحبه المنتجبين.

قديماً قال أبو عثمان الجاحظ : ((ولربما أراد مؤلف الكتاب أن يصلح تصحيفاً ، أو كلمة ساقطة ، فيكون إنشاء عشر ورقات من حر اللفظ وشريف المعاني ، أيسر عليه من إتمام ذلك النقص حتى يرده الى موضعه من أتصال الكلام /الحيوان (٧٩/١)) ولقد أردت منذ زمن أن أحقق في مواضع من التفسير اللغوي في كتابي الحيوان والبيان للجاحظ ، بعد أن وقفت.

على تفسير للغوي في كتاب العين تبين لي أني قد أطلعت عليه في موضع من كتاب البيان ، فما كان علي إلا أن أسجل كثيراً من التفسيرات اللغوية في كتابي الجاحظ وأن أقابلها على ما ورد في كتاب العين نظراً الى الأصل اللغوي الذي يندرج تحته هذا التفسير أو ذاك .

ومن هنا كان هذا البحث المتواضع : (الجاحظ وكتاب العين) وهو محاوله استقرائية تحليلية لا أدعي فيها الإحاطة بالرغم من الجهد الذي بذلته من ورائها ، والوقت الذي صرفته من أجل الإجابة عن تساؤل كان

يراودني طيلة السنوات الثلاث الماضية : هل أطلع الجاحظ على كتاب العين ؟

وظل التساؤل يلح على حتى يسر الله لي الإجابة عن ذلك ، حينما أعارني زميلي الباحث الدكتور قاسم محمد كامل نسخة من بحثه المخطوط (من تراثنا المفقود – كتاب الجيم – لأبي عمرو شمر بن حمدويه الهروي ٢٥٥ هـ) ففتح لي باباً خشيت أن يظل مغلقاً بمصراعيه ، بما ورد فيه من معلومات تاريخية قيمة أفاد منها هذا البحث ، نبهت عليها في مواضعها.

وقد سلكت في هذا البحث أتجاهين: أحدهما ، تاريخي ، وقد اقتضاه هدف البحث ، يكمن في التقديم لظهور كتاب العين من جهة ، وزمن تأليف كتابي الحيوان والبيان من جهة أخرى ، أما الآخر فيكمن في الموازنة بين ما ورد من تفسيرات للغويه في كتابي الجاحظ من جانب وبين ما ورد من مثيلاتها في كتاب العين باعتبار الأصول اللغوية ، ولم يقتصر هذا التجاه على الموازنة وحدها بل أتبعته بنقد وتحليل لهذه التفسيرات لغرض الاستدلال والاستنتاج ، وكل ذلك من أجل الغاية التي يسعى اليها البحث ، حتى ترد كلا الى موضعه من أتصال التراث اللغوي عند العرب.

واذا كان هذا البحث مديناً لأحد فأن ذلك كله الأستاذي المرحوم الدكتور محمد جبار المعيبد الذي أزرني فيه بلهجة العالم المنقب ، وشد على يدي بكلمة الباحث المحقق ، فكان ذلك دأبه وكانت هذه سبيلي .. وما هي الا سبيل الحقيقة والأنصاف والله نسأل أن يجنبنا العجب بما نحسن ، ونعوذ به من التكلف لما لا نحسن ، وإليه يصعد الكلم الطيب...

بـكـأ

قال الجاحظ (البيان ٢٧٤) : فقال ناس البك : القلة ، وأصل ذلك من اللبن.

وفي العين ٥/٤١٨ : البكينة من الشاء (أو الأبل) القليلة اللبن

***روب**

قال الجاحظ (البيان ٣/٢٠) : وقال بعضهم منه : ورؤبة الليل ، ساعة منه : قال الشاعر:

فألفاهم القوم روبي نياما

وفي العين ٨/٢٨٤ : والروبة الطائفة من الليل ... والروب : أن يروب الانسان من كثرة النوم .. ورجل روبان و جمعه روبي.. قال بشر (٢٠) فأما تميم تميم بن مر فألفاهم القوم روبي نياما

***ظرب**

قال الجاحظ (الحيوان ٦ / ٣٧٢) بعد أن أورد قول أبي سليمان الغنوي في الظربان : وقال غيره : الظربان يكون على خلقه هذا الكلب الصيني وهو منتن جدا ، يدخل في جحر الضب فيفسو عليه فينتن عليه بيته حتى يزلق الضب من بيته فيصيده.

وفي العين ٨ / ١٥٩ : والظربان (٢١) والظرابي : شيء أعظم من الجرذ على خلقه الكلب، منتن الريح كثير الفساء يقسو في جحر الصب حتى يخرج فيأكله..

***لزب**

قال الجاحظ (البيان ١٩٩١) : قال النابغة : (٢٢)

لا يحسبون الخير لا شر بعده ولا يحسبون الشر ضربة لازب

قال : لازب ولازم واحد ، واللازب في مكان آخر : اليابس قال الله عز وجل : ((من طين لازب)) واللزبات : السنون المجدبة

وفي العين ٧ / ٣٦٩ : ولزب لزوباً أي لزق ، والطين اللازب منه...

قال النابغة : ... واللزب أيضاً الضيق والقحط

***لوح**

قال الجاحظ (البيان ١ / ٢٨٠) : واللوح – بالضم – : الهواء.

وفي العين ٣ / ٣٠١ : واللوح : الهواء ، قال : (٢٣)

ينصب في اللوح فما يفوت

***مدح**

قال الجاحظ (البيان ٣ / ٣١٨) : المذح سجح أحدى الفخذين بالأخرى . وقد أنشد قبله:

إنك لو سافرت قد منحت وحكك الحنوان فانفشحت

***خلد**

قال الجاحظ البيان (٣١/١) بعد أن ذكر بيت صفوان الأنصاري يهجو بشاراً وأخويه وكان يخاطب أمهم في قوله:

ولدت خلدا وذيخا في تشتمه ...(٢٥)

الخلد : ضرب من الجرذان.

وفي العين ٢٣٢/٤ والخلد ضرب من الجرذان عمي لم يخلق لها عيون.

***خنذ**

قال الجاحظ الحيوان(١٣٣/١) : ويزعم من لا علم له ان الخنذيد من الخيل هو الخصي ، وكيف يكون ذلك كما ، قال مع قول خفاف بن ندبة

وخناذيذ خصية وفحولاً

واما الخنذيذ فهو الكريم التام ، وربماوصفوا به الرجل..

وفي العين ٢٤٤/٤-٢٤٥: الخنذيذ الخصي من الخيل ويقال هو الطويل ، قال النابغة (٢٦)

وبراذين كأبيات وأتناً وخنائيذ خصية وفحولاً

وفي المخصص ١٥٩/٦ قال أبن سيدة وهو ينقل عن صاحب العين : والخنذيذ الخصي.

***جرر**

قال الجاحظ (البيان (٢١٤/١) : وقال عمرو بن معد يكرب (٢٧):

فلو أن قومي أنطقتني رماحهم

نطقت ولكن الرماح أجرت

الجرار : عود يعرض في فم الفصيل أو يشق به لسانه لئلا يرضع .

وفي العين ٦ / ١٣ - ١٤ : وربما شق وسط لسان الجدي أو الفصيل ثم يشد فيه خشيه كي لا يرضع ويسمى ذلك التقليد : الإجرار

000 قال : فلو أن جرماً أنطقني رماحهم

نطقت ولكن الرماح أجرت

*** حدر**

قال الجاحظ (الحيوان ٤ / ٢٨) بعد أن أنشد بيت عمر بن أبي ربيعة : (٢٨)

لودب در فوق ضاحي جلدها الأبان من أثار هن حدور

والحدر : الورم والأثر يكون عن الضرب

وفي العين ٣ / ١٧٩ : وحدر جلده يحدر حدراً أي تورم ، قال: لو دب ذر فوق ضاحي جلدها ...

*** ليس**

قال الجاحظ (البيان ١ / ٢٥٠) بعد أن أورد قول العجاج (٢٩):

اليس عن حوبائه سخي

اليس ، يقال للفارس : شجاع.

وفي العين : الليس مصدر الأنيس وهو الشجاع .. قال العجاج :

أليس عن حوبائه سخي

*** ريط**

قال الجاحظ (البيان ١ / ١٥٨) بعد أن أورد قول العماني

الراجز :

لذهن في الريط وفي الموادع

: والريطة كل ملاءة لم تكن لفقين.

وفي العين ٤٤٨/٧: الريطة ملاءة ليست بلفقين لكلها نسج واحد .

وفي فقه اللغة وسر العربية (ص ١٥) عن الليث : كل ملاءة لم تكن لفقين فهي ريطة .

وفي المخصص ٧٧/٤ روي مثل ذلك عن الأصمعي وهو ممن أخذ عن الخليل.

*** ربع**

قال الجاحظ (البيان ١ / ٣٨١) : والمرباع ربع الغنيمة في الجاهلية لصاحب الجيش، وقال ابن علمة:(٣٠)

لك المرباع منها والصفايا وحكمك والنشيطة والفضول

وفي العين ٢ / ١٣٣ : والمرباع كانت العرب إذ غزت أخذ رئيسهم ربع الغنيمة .. قال : لك المرباع منها والصفايا

*** خلف**

قال الجاحظ البيان (١/٢٦٧) بعد أن أورد بيت لبيد (٣١):

ذهب الذين يعاش في أكنافهم وبقيت في خلف كجلد الأجرب

: الخلف: البقية الصالحة من ولد الرجل وأهله ، والخلف ضد هذا .

وفي العين الخلف خلف سوء بعد أبيه، قال لبيد :

ذهب الذين يعاش في أكنافهم وبقيت في خلف كجلد الأجرب

*** بهل**

قال الجاحظ (البيان ٣ / ٧٤) : الباهل الرجل أذا لم يكن معه عصا ، وناقة باهل وباهلة ، إذا كانت بغير صرار .

وفي العين (٤ / ٥٥) : والباهل المتردد بلا عمل ، وهو أيضاً :

الراعي بلا عصا ..

والباهل الناقة التي ليست مصرورة .

*** زول**

قال الجاحظ (البيان ١ / ٢٣٦) : الزول : الخفيف الظريف ،أزوال.

وفي العين ٧ / ٣٨٤ : الزول : الفتى الخفيف الظريف ... وفتيان أزوال .

*** عمل**

قال الجاحظ (البيان ١ / ٣٩١) : اليعملات : العوامل ، والياء زائدة لأنها من : عملت.

وفي العين ١٥٤٢ : واليعملة من الإبل أسم مشتق من العمل .

والجمع يعملات ، ولا يقال اللانثى.

وفي مختصر العين ١ / ٣٦٥ : البعملة : الإبل ، أسم مشتق من العمل .

وفي الصاحبي ٢٦٥ : قال الخليل : البعملة من الإبل أسم مشتق من العمل ، ولا يقال إلا للإناث .

*** غلل**

قال الجاحظ (البيان ٣ / ٢٤٤) : وقال آخر يصف فرساً (٣٢):

ينجيه من مثل حمام الاغلال

الأغلال: جمع غلل وهو الماء الذي يجري بين ظهري الشجر.

وفي العين ٤ / ٣٤٨ : الغلل : الماء بين الشجر

*** فحل**

قال الجاحظ (البيان ٣ / ٩٦) : وإذا كان الفحل من الإبل كريماً قالوا : فحيل وإذا كان الفحل من النخل كريماً قالوا فحيل ، وإذا كان الفحل من النخل كريماً قالوا : فحال.

وفي العين ٣ / ٢٣٥ : وفحل فحيل : كريم المنجب ، ويقال للنخلة الذكر . فحالة ، والجميع : فحال

*** فصل**

قال الجاحظ (الحيوان ٢/٣٥١) : والمفاصل ماء بين السهل والجبل ، وقال أبو ذؤيب (٣٣)

مطافيل أبكار حديث نتاجها

تشاب بماء مثل ماء المفاصل

وفي العين ٧ / ١٢٦ : والمفصل أيضاً : كل مكان في الجبل لا تطلع عليه الشمس ، قال الهذلي

مطافيل أبكار حديث نتاجها

تشاب بماء مثل ماء المفاصل

***حصن**

قال الجاحظ (البيان ١ / ٢٣٢) : وقال العجاج (٣٤) :

وحاصن من حاصنت ملس

المحصنة : ذوات الزوج ، والحاصن : العفيف

وفي العين ٣ / ١١٨ : وامرأة حاصن بينه الحصن والحصانة أي العفافة ، وجماعة الحاسن حواصن وحاصلات، وقال العجاج :

وحاصن من حاصنت ملس

*** عين**

قال الجاحظ (الحيوان ٢ / ١٤٢) : ويقال عنت فلانا أعنيه عينا اذا أصبته بعين ، ورجل معين ومعيون اذا أصيب بالعين ، وقال عباس بن مرداس (٣٥):

قد كان قومك يحسبونك سيدا

وأخال انك سيد معيون

وفي العين ٢ / ٢٥٤ – ٢٥٥ : وعنت الشيء .. فأنا أعنيه عيناً ،

ويقال : معين إذا (أصبيبالعين) (٣٦) .. قال في المعيون :

قد كان قومك يحسبونك سيداً وأخال إنك سيد معيون

*** حظو**

قال الجاحظ (البيان ٣ / ٥٠) : الحظاء : سهام صغيرة ، واحدها :

حظوة .

وفي العين ٣ / ٢٨٤ : والحظوة السهم الصغيرة ، وجمعه : حظوات وحظاء .

*** كمي**

قال الجاحظ (البيان ١ / ١٨٠) : الكمي : الرجل المتكمي بالسلاح ،يعني المتكفر به المتستر ، ويقال : كمي الرجل شهادته يكميها ، إذا كتمها وسترها .

وفي العين ٥ / ٤١٩ : كمي الشهادة بكميها كمياً أي كتمها ، والكمي: الشجاع لانه يتكمى في السلاح أي يتغطى به .

*** وجي**

قال الجاحظ (البيان ١ / ٢٦٦) بعد أن أورد بيت لبيد (٣٧) :

وأبيض يجتاب الخروق على الوجي

خطيباً إذا التف المجامع فاصلاً

والوجى : الحفا، مقصور كما ترى، وانه ليتوجي في مشيته، وهو وج، وقال رؤية (٣٨):

به الرذايا من وج ومسقط

وفي العين ٦ / ١٩٧ : يقال وجيت الدابة وهي توجي وجي ، بلا همز ، مقصورة من الوجى وهو الحفا ، وإنه ليتوجى في مشيته فهو رج .

قال رؤبة :

به الردايا من وج ومسقط

كتاب العين (الرواية والنسخ)

عن أبي بكر بن دريد وقع بالبصرة كتاب العين سنة ٢٤٨هـ ، وقدم به وراق من خراسان (١)

وذهب السيوطي إلى أن الكتاب ظهر في البصرة ((في زمان أبي حاتم وفي حال رئاسته ، وذلك فيما قارب الخمسين والمائتين، لأن أبا حاتم توفي سنة خمس وخمسين ومائتين)) (٢)، أي أن أقدم نسخ هذا الكتاب ظهرت بعد وفاة الخليل بن أحمد بما يقارب الخمسة والسبعين عاماً مما أثار الشك في نسبته إليه لاسيما أن ما وقفنا عليه من هذا الكتاب يحتوي على صنوف من السهو والإهمال تناقض ما عرفناه عن الخليل من دقة وتعلق بمنهج محكم لا يسهل تطرق الخطأ إليه)) (٣) ويعلل د. حسين نصار ذلك السهو وذلك التناقض بأن ((الخليل مات بعد أن وضع خطة كتابه دون أن ينقذها ، أو مات بعدما أنجز جزءاً منه ، وكان الذي أتمه تلميذه الليث بن المظفر فارتكب أخطاء متعددة عابت الكتاب)) (٤) ولعل د حسين نصار أفاد ذلك من قول الأزهري : ((ولم أو خلافاً بين اللغويين أن التأسيس المجمل في أول كتاب العين لأبي عبد الرحمن الخليل .. وأن ابن المظفر أكمل الكتاب عليه بعد تلقفه إياه من فيه)) (٥) وإلى نحو هذا ذهب ياقوت إذ يرى أن الليث أكمل الكتاب بعد أن عمل الخليل قطعة منه (٦) وتلك القطعة التي عملها الخليل هي باب العين كما قال ثعلب (٧) . ومما تتقدم فأن أقدم نسخة مخطوطة من كتاب العين – وكان في ثمانية واربعين جزءاً – ظهرت في منتصف القرن الثالث الهجري من خراسان الى البصرة . وأن مشروع عمل هذا الكتاب كان في أواخر حياة الخليل وفي علته حتى قال الليث : ((فأذا هو قد ألف الحروف كلها على ما في صدر هذا الكتاب ، فكان يملي علي ما يحفظ ، وما شك فيه يقول لي سل عنه فأذا صح فائبسته ، إلى أن عملت الكتاب)) (٨) ومن هذا أيضاً ، نستدل على أن الليث بن المظفر ١٩٠ هـ تلميذ الخليل ووراقه هو أول من روى كتاب العين عن الخليل ، أما عبارة ابن دريد التي نقلها ابن النديم : ((ولم يرو هذا الكتاب عن الخليل أحد)) (٩) فهي بحاجة إلى تأمل، ولعل المراد منها ان أحدا من أصحاب الخليل لم يروعنه العين في البصرة خاصة ، وعن

الليث أخذ أبو محمد محارب (في حدود ٢٤٠هـ) وعن محارب هذا أخذ أبو عمرو شمر الهروي (ت ٢٥٥هـ) صاحب كتاب الجيم الذي قال فيه الأزهري : ((وكان شمر – رحمه الله – مع كثرة علمه وسماعه لما ألف كتاب الجيم لم يخله من حروف كثيرة من كتاب الليث عزاها إلى محارب ، وأظنه رجلاً من اهل مرو وكان سمع كتاب الليث منه)) (١٠) ، وهذا يقودنا إلى القول : إن كتاب الدين كان متداولاً نوعاً ما في حدود الأربعين والمئتين ، رواية في البصرة أولائم في خراسان رواية ونسخاً ، بل أن شمراً نقل بعض نصوصه إلى كتابه الجيم (١١) عن طريق محارب الخراساني راوي كتاب العين عن الليث ، و من خلال النقول التي أوردها الزميل الدكتور قاسم محمد كامل في كتاب التاج لشمر من كتاب العين ، يتضح أثر العين المبكر في المعاجم اللغوية التي صنفت بعده ، ولعل أثره وقع في كتاب الجيم (١٢) للنضر بن شميل ٢٠٣ هـ تلميذ الخليل ، غير أن هذا الكتاب لم يوقف على شئ منه ٠ بل أمتد أثر العين الى كتب اللغة الأخرى ومن بينها كتابا الحيوان والبيان للجاحظ ، وهو ما سيرد القول فيه .

كتابا الحيوان والبيان :

أغلب الظن أن الجاحظ بدأ في تأليف كتابه الحيوان في أواخر أيام وزاره محمد بن عبد الملك الزيات ٢٣٣هـ ، ولعله أهداه قطعة منه ، ثم شرع في أكمال أجزائه الأخرى بعد مقتل الزيات ، ولعله فرغ من تأليف الكتاب بعد مقتل المتوكل ٢٤٧ هـ ، وقد رجح الدكتور طه

الحاجري (١٣) ذلك بما وجده في آخر الحيوان من حديث أورده الجاحظ عن عبوية صاحب ياسر الخادم ، قال الجاحظ : ((وحدثني بهذا الحديث في الأيام التي قام بها أمير المؤمنين المتوكل على الله)) (١٤) والتفاتة الدكتور طه الحاجري تجعلنا نطمئن من أن الكتاب قد ألف في مراحل متعاقبة ، ولا شك في أن الجاحظ فرغ منه في البصرة وفي سني حياته الأخيرة حين علت به السن وأخذ منه المرض كل مأخذ وأما كتاب البيان ، فيرى العلامة عبد السلام هارون رحمه الله ((أن الجاحظ ألفة في أخريات حياته حين علت به السن ..)) (١٥) ولعل تأليفه كان متزامناً مع تأليفه الحيوان غير انه فرغ من هذا أولاً ، ثم فرغ من البيان بعد ذلك (١٦) ، وربما كان كتاب البيان أخر ما ألفه الجاحظ من بين كتبه الشهيرة في البصرة .

وفي كتاب الحيوان كما في كتاب البيان ، تفسيرات لغوية يوردها الجاحظ أما ستطراداً وأما لغرض توضيحي . وفي الحالين ، فأن مثل هذه التفسيرات أنما هي من عمل الجاحظ وليست من زيادات الوراقين والنساخ ، كما أشار المحقق الثبت الأستاذ عبد السلام محمد هارون رحمه الله – في مقدمة التحقيق لكتاب البيان (١٧) وكما يدل عليها سياق أسلوب الجاحظ ومنهجه ، وأذا كان الجاحظ من اللغويين القدماء الذين عنوا باللغة فأن علمه فيها أنما جاءه عن طريق أئمة اللغة من أمثال أبي عبيدة والأصمعي وأبن الأعرابي وأبي زيد وعن طريق بعض علماء اللغة والأعراب أمثال أبي الرديني العكلي وأبي عدنان البصري والعدبس الكناني وغيرهم ويمثل هؤلاء بعض مصادر

الجاحظ في تفسيراته اللغوية في أثناء كتابي الحيوان والبيان ، وهي في جماعها نقول عنهم سواء صرح بهم أم لم يصرح وسواء كانت تلك النقول سماعاً ورواية ، أم أقتباساً من كتب اللغة المتداولة في عصره .

يستخبر الريح أذا لم يسمع ومن أمثلة ذلك ما قاله الجاحظ : وأنشدني أبو الرديني العكلي (١٨) بمثل مقراع الصفا الموقع المقراع ، الفأس التي يكسر بها الصخر ، والموقع المحدد ، ويقال وقعت الحديدة أذا حددتها والتفسير كما يبدو لأبي الرديني وليس للجاحظ . وقال : وكان أبو مالك (عمرو بن كركره) ٢٥٠هـ يقول (١٩) : العيثوم الفيل الأنثى ، وذهب إلى قول الشاعر :

وطئت عليك بخفها العيثوم

وقد عثرت في مواضع من هذين الكتابين على تفسيرات لغوية وافقت في لفظها وبعض شواهدها الشعرية تفسيرات لغوية في كتاب العين ، وذلك من خلال المقابلة بين الأصول اللغوية الواردة فيها كلاً على حدة ، حتى وقفت على هذا القدر من التفسيرات التي رتبتها على حروف المعجم ، باعتبار أواخر الأصول .

تعليق وتحليل

وبعد ، فمن خلال سرد هذه التفسيرات اللغوية للجاحظ وما يقاربها من تفسيرات في العين ، فأن ذلك يجعل الباحث بين أمرين :

الأول : إما أن تكون هذه التفسيرات قد وقعت إلى كتاب العين بعد وفاة الجاحظ ٢٥٥ هـ من قبل نساخ مجهولين ، وهو أمر لا يمكن أثباته في الوقت الحاضر ، والثاني : إما أن يكون الجاحظ قد نقلها

إلى تلك المواضع من كتابيه من العين والنفس أقرب إلى هذا من دنا، ودليلنا عليه :

أولاً : ما سلف من القول في أن أقدم نسخ العين قد وصلت البصرة في حوالي ٢٤٨ هـ قدم بها وراق من خرسان . ولعلها في رأينا وصلت قبل ذلك ، سواء كان حاملها بصرياً أم خرسانياً.

ثانياً : أن الجاحظ أنتهى من تليف كتابيه متعاقبين في أواخر حياته ولا يكون ذلك إلا بعد ٢٥٢هـ. على أقل تقدير، وهو في سن عالبية كما سلف بيانه .

ثالثاً : عبارات الجاحظ في نقوله – في بعض المواضع توحي بأنه أطلع على كتاب العين أو سمع بعض النصوص منه عن طريق ما ، ومن هذه العبارات :

في مادة (ظرب) قال الجاحظ : وقال غيره ... ولعله يريد صاحب العين ، إذ التفسير بلفظه في العين كما سلف.

وفي مادة (خنذ) قال الجاحظ : ويزعم من لا علم له .. وقال في (البيان ١١/٢) وقد زعم ناس ... وقد تبين إلي أن الذي يقصده الجاحظ هو صاحب العين ، فالنص وشاهده في العين ، ولم أعثر عليه – بحسب علمي – في مصادر لغوية سابقة على العين ، وقد دل صاحب العين على أن (الخنذيذ) من الأضداد فلا مجال لإنكار الجاحظ كون الخنذيذ : الخصي . وقد عثرت في كتاب الفرق (ص ٩١) الثابت بن أبي ثابت) منتصف القرن الثالث الهجري : الخنذيذ الكريم من الخيل ويقال : الخصي . وقد نص صاحب العين أنه من الخيل : الخصي .

في مادة (ريط) فسر الجاحظ الربطة بالملاءة ليست بلفقين ٠ والتفسير لصاحب العين ، وأكده الثعالبي وهو ينقل عن الليث هو أن عزي الى الاصمعي في المخصص ٤/٧٧ والاصمعي كما معلوم ممن أخذ عن الخليل.

في مادة (عمل) يرى الحاجظ أن البعملات مشتقة من العمل ، وهو رأي صاحب العين ، ونقله أبن فارس في الصاحبي معزواً إلى الخليل ٠

وثمه تفسيرات لغويه أخر وقعت في كتاب البيان خاصة ، تكاد تقارب ما ورد من مثيلاتها في العين ، ورأيت أن أشير إلى مواضعها في كل من الكتابين بمقابلة الصفحات ، ومنها :

* رتب (الرتبة) الواحدة من رتبات الدرج :

١٨٣/١ البيان ٨ / ١١٥ العين

* شحشح (الشحشح)

البيان ٢٧٤/٢ ١٢/٣ – ١٣ العين

* عفر (عفر، العفر، العمرة)

١ / ٣٣٤ البيان ٢ / ١٢٣ العين

* زعم (الزعيم)

١ / ٢٣٢ البيان ١ / ٣٦٤ العين

* شنشن (الشنشنة)

١ / ٣١١ البيان ٦ / ٢٢٠ العين

ولنا بعد ذلك أن نتساءل : لم لم يصرح الجاحظ في نقوله ذلك عن صاحب العين ، كما صرح في مواضع كثيرة من كتابيه عن أبن الأعرابي وأبي عبيدة والأصمعي وأبي مالك الغنوي وأبي ثروان العلكي وغيرهم كثير . وعلى سبيل الافتراض أن كتاب العين هو من نتاج عقلية الخليل منهجاً ومتنا ، فلم لم يذكره الجاحظ أو يلوح الى صاحبه ، وقبل أن

نجيب على ذلك ، أقول : أذكر أني قبل خمس سنوات قد عرضت فصاصة من الورق فيها تفسير لغوي للجاحظ يماثل ما ورد في الله العين (مادة وجي) على أستاذي الدكتور محمد جبار المعيبد – رحمه فأبدى إعجابه – وكان معنياً بكتاب العين – ثم أضاف : أفيدك علماً : الجاحظ يكره الخليل. ولم أجد حينها ما ينبئ عن ذلك ، فاليت على نفسي أن أتقصى عن ذلك ، حتى وقفت على هذه النصوص :

قال الجاحظ : وكان أبو إسحاق (النظام (إذا ذكر الوهم لم يشك في جنونه وفي اختلاط عقله ، وهكذا كان الخليل ، وإن كان قد أحسن في شئ (٣٩) وقال : وذكر النظام الخليل أبن أحمد ، فقال : توحد به العجب فأهلكه .... وفتنته دوائره التي لا يحتاج اليها غيره (٤٠)

وقال في موضوع آخر : وغره – يعني أبا والله الرياحي – ٠٠ من نفسه الذي غر الخليل بن أحمد حين أحسن في النحو والعروض فظن أنه يحسن الكلام وتأليف اللحون .. (٤١) والذي يظهر لي من هذه النصوص أن الجاحظ قد هذا حذر أستاذه النظام في نعت الخليل بالغرور والكبر حين أحسن في النحو والعروض ، وجره غروره – في زعمهما – إلى أن يتعاطى التأليف في علم الكلام والإيقاع

والموسيقى وإذا كان هذا التحامل على الخليل من الجاحظ وأستاذه ملموساً ، فأنه في الغالب إنما يعود إلى الاختلاف في الرأي ووجهات النظر فيما يتصل بعلم الكلام والتوحيد خاصة ، وربما يعود إلى اختلاف المذهب ، ومن جانب آخر ، فأني رأيت الجاحظ معترفاً بفضل الخليل مقراً بعلمه حين يقول : ((وربما ألفت الكتاب الذي هو دونه في معانيه وألفاظه فأترجمه غيري وأحيله على من تقد مني عصره مثل أبن المقفع والخليل...)) (٤٢) وربما صدر قوله هذا في أيام عنفوانه وفي زمن الشبيبة ، وقال في أواخر حياته : ((وقد قيل للخليل : مالك لا تقول الشعر ؟ قال : الذي يجيئني لا أرضاه ، والذي أرضاه لا يجيئني ٠ فانا أستحسن هذا الكلام)) (٤٣) ولا يعني استحسانه الكلام الخليل عدم استحسانه للخليل نفسه كما أرى ، ومع ذلك فأن ثمة حقيقة ، في ظننا ، هي أن الجاحظ قد تجاهله كتاب العين في مواضع التفسير التي أثبتناها ، كما أغفل نسبتها إلى صاحب العين ، في حدود الرأي المتفق عليه في أن التفسير اللغوي في الحيوان والبيان هو من عمل الجاحظ وليس زيادة من يد النساخ والوراقين .

وبعد ، فإذا كان الجاحظ قد أطلع على كتاب العين ، فكيف أتيح له ذلك ؟ يغلب على الظن أن ذلك قد كان عن طريق بعض علماء اللغة الذين عاصروا الجاحظ ، ولا فرق في أن يكون سمع أو أخذ عنهم ، وفي مقدمة هؤلاء أبو حاتم السجستاني ٢٥٥هـ ، الذي سبق أن أشير إليه في قول السيوطي : في أن كتاب العين قد ظهر في زمنه وفي حال رئاسته ، وذكر السيوطي إنكار أبي حاتم لكتاب العين

منسوباً للخليل ٤٤ ، ودفعه إياه . ولعل إنكار أبي حاتم للعين يرجع إلى أن الكتاب لم يروه أحد من أصحاب الخليل ، ولاسيما في البصرة ، وأن التأليف في مثل العين ، منهجاً ومتناً ، لم يكن مألوفاً في زمن أبي حاتم ، ولعل أبا حاتم علم بأمر الكتاب عن طريق شمر الذي عند من بين تلاميذه (٤٥) وقد تبين لنا فيما مضى ، أن شمراً قد أطلع على كتاب العين ، بل إنه أعتمد .

في تأليف كتابه الجيم من خلال رواياته عن محارب الخرساني راوي كتاب العين عن الليث.

وإذا صحت رواية أبن دريد في أن ظهور كتاب العين في ٢٤٨ هـ في البصرة ، وأنه قال : ((وكنا نسمع بهذا الكتاب أنه بخراسان ٠٠ حتى قدم به هذا الوراق)) (٤٦) و عمر ابن دريد حينذاك٢٥ سنة إذ ولد ٢٢٣هـ – فمتى سمع أو (سمعوا) أنه بخراسان فإذا صح ذلك كله فمن المحتمل أن يكون خبر الكتاب قد وصل إلى البصرة عن طريق شمر تلميذ أبي حاتم شيخ ابن دريد ، فظهر أمره بين علماء اللغة البصريين ، ولا يكون ذلك إلا قبل ٢٤٨ هـ ولا يبعد لدينا ، بعد ذلك ، أن الجاحظ قد سمع به أو اطلع على شيء منه عن طريق شمر أو أبي حاتم الذي ينقل عنه الجاحظ وربما كان عن أبي عدنان البصري الذي ذكره الجاحظ في قوله : ((وما كان عندنا بالبصرة رجلان أدرى بصنوف العلم ولا أحسن بياناً من أبي الوزير وأبي عدنان المعلمين ، وحالهما من أول ما أذكر من أيام الصبا)) ٤٧ وعبارة الجاحظ : ((ما كان عندنا ..)) تذكر يوحي بأن الجاحظ قد فارقه في أيام

الصبا ، وانه التقى به بعد زمن فأخذ منه علما قبل وفاته، كما أن عبارته : أدرى بصنوف العلم)) تدل على أن الجاحظ قد سمع منه ولعله كان أحد شيوخه ، إذ كان أبو عدنان البصري من علماء اللغة .

وسله من المصنفات : كتاب القوس وكتاب غريب الحديث مفراً (٤٨) .

وأما عبارة الجاحظ : وحالهما من أول ما أذكر من أيام الصبا فهي إشارة إلى أن أبا عدنان كان معلماً ، في أيام الجاحظ تلك ، حتى أتيحله أن يكون من علماء اللغة ومؤلفيهم.

ومن الغريب ، بمكان ، أن الجاحظ لم يرو عنه شيئا .. في كتابيه .. في مسائل اللغة والبيان سوى ما أورده من شعر له في مواضع قليلة من كتابه الحيوان (٤٩).

وقد وقفنا على أن أبا عدنان كان صديقاً لأبي محمد محارب الخراساني راوي كتاب العين عن الليث ، وأنه كان يفد على خراسان الزيارته حتى قال له محارب في أحدى زيارته لا تقطعنا (٥٠).

وإذا كان ذلك ثابتاً فمن غير المستبعد أن يكون أبو عدنان قد أطلع على كتاب العين (٥١) عن طريق محارب ، وربما عن طريق شمر الذي أخذ عن أبي عدنان كما ألمح الأزهري (٥٢) وإذا كان أبو عدنان قد أطلع على العين عن طريق صديقه محارب ، فأن ذلك كان في حدود الثلث الأول بعد المئتين ولعل ذلك كان قبل وفاة أبي عدنان في حدود الأربعين بعد المائتين على أقرب احتمال.

وعن طريق أبي عدنان أتيح للجاحظ أن يسمع بكتاب العين أو يطلع على فصول منه.

من هذا كله نستطيع أن تقرر أن الجاحظ أطلع على كتاب العين أما عن شمر تلميذ أبي حاتم السجستاني في البصرة ، وأما عن أبي عدنان اللغوي البصري عن طريق محارب الخراساني.

الخاتمة :

ذاع خبر كتاب العين بين علماء اللغة في البصرة قبل ٢٤٠هـ عن طريق شمر الهروي ٢٥٥هـ وعن طريق أبي عدنان البصري ٢٤٠هـ ؟ عن محارب الخراساني بعد ٢٣٥هـ؟ عن الليث ١٩٠هـ واذا كان القرن الثالث الهجري عصر الرواية والتدوين والتأليف ومجالس العلم وتحصيله فلا غرو أن تكون الرحلة بين أمصار المشرق الأسلامي في أطار الدولة الموحدة – إحدى وسائل تحصيل العلم وطلبه ، فكان أن قدم إلى البصرة من خراسان أبو عمرو شمر الهروي ليأخذ العلم من شيوخ اللغة البصريين ، وكان من بين هؤلاء الذين أخد عنهم شمر أبو حاتم السجستاني ٢٥٥هـ وأبو عدنان البصري اللغوي الشاعر .

ولم يكن شمر في تصورنا – حين كان يفد على البصرة، في عنفوان شبابه أو بعد ذلك ، فارغ اليدين بل كان بينهما علم في حواشيه كتاب العين الذي أخذه عن محارب تلميذ الليث.

وفي المقابل فأن من علماء اللغة البصريين ، خاصة من كان له صلات ببعض علماء خراسان من أمثال أبي عدنان البصري الذي تربطه علاقة صداقة وثيقة، كما يبدو بمحارب راوي كتاب العين عن الليث.

وهكذا تهيأ للبصرة أن تسمع بخبر كتاب العين عن طريق شمر أولا ، و عن طريق أبي عدنان ثانيا ، وعنهما كليهما ، ذاع خبر العين بين علماء اللغة ، على حد تعبير أبي بكر بن دريد وكنا نسمع ...) بل ربما ذاعت روايته على نحو ما قبل أن تقد إلى البصرة تلك النسخة القادمة من خراسان على يد أحد نساخ كتاب العين قريباً من النصف الأول من القرن الثالث الهجري ، كما قرر أبن دريد ، أو قبل ذلك الحين ، كما استنتجنا من قبل وإذا كان أثر العين منهجا ومادة، واضحاً في كتاب الجيم لأبي عمرو شمر (٥٣) الذي يعد من أوائل المعاجم كما تعلم –التي تأثرت بطريقته سواء على مستوى نظام التقليبات أم البدء بالعين فالأرفع.. فقد ظهر أثره واضحا على مستوى المادة اللغوية في كتب لغوية أخرى منها البيان والتبيين وبعض المواضع من كتاب الحيوان لأبي عثمان بحر بن عمرو الجاحظ ؟١٥هـ، بعد أن عثرنا على طائفة من تفسيرات لغوية في هذين الكتابين تكاد تكون مماثلة أو مقاربة لما وجدناه من تفسيرات المواد الغوية في كتاب العين، على مستوى التفسير في الغالب وعلى مستوى الشاهد أحياناً، الأمر الذي يدفعنا مطمئنين – إلى أن الجاحظ قد نقل ذلك من كتاب العين ، أما سماعاً عن شمر نفسه وأبي عدنان البصري وأما من خلال حصوله على تفاريق من العين على غرار التفاريق التي عثر عليها الأزهري من كتاب الجيم الشمر فضمنها كتابه تهذيب اللغة .

ولا أستبعد بعد ذلك كله ، أن قول الجاحظ : فأما في اقتران الحروف قان الجيم لا تقارن القاف .. بتقديم ولا بتأخير (((54) ، هو فحوى قول صاحب العين : وكذلك الجيم مع القاف لا يأتلف إلا يفصل)) (٥٥)

مصادر البحث ومراجعه :

١ – البيان والتبين ، الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون مصر ١٩٨٥١.

٢ –تهذيب اللغة ، ألازهري، تحقيق عبد السلام هارون وآخرين مصر١٩٦٧.

٣– الجاحظ ، د طه الحاجري ، مصر ١٩٦٢.

٤ – الحيوان ، الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ٣ بيروت ١٩٦٩.

٥ – ديوان بشير بن أبي حازم تحقيق د. عزة حسن ، دمشق ١٩٧٢.

٦– ديوان رؤبة بن الحجاج تصحيح وليم بن الورد بيروت ١٩٧٩.

٧– ديوان العباس بن مرداس جمع وتحقيق د. يحيى الجبوري بغداد ١٩٦٨.

٨– ديوان العجاج، تحقيق د. عبد الحفيظ السطلي دمشق ١٩٧١.

٩– ديوان عمر بن أبي ربيعة (ط بشير ميوت) بيروت ١٩٣٤

١٠ – ديوان لبيد ، دار القاموس الحديث ، بيروت.

١١ – ديوان النابغة، تحقيق محمد أبو الفضل ، دار المعارف ١٩٧٧ مصر.

١٢ – ديوان الهذليين (مصورة عن طبعة دار الكتب) القاهرة ١٩٦٥.

١٣ – رسائل الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ١٩٦٤ .

١٤ – شرح ديوان حسان ، تحقيق البرقوقي ، بيروت ١٩٨٠ .

١٥– شعر طرفة = طرفة بن العبد .

١٦ – الصاحبي في فقه اللغة، تحقيق مصطفى الشويمي ، بيروت ١٩٦٣ .

١٧ – الصحاح ، الجوهري، تحقيق أحمد عبد الغفور عطا بيروت .

١٨ – طرفة بن العبد، تحقيق ودراسة لشعره ، د. على الجندي دار الفكر ، القاهرة .

١٩ – علم اللغة العربية ، د. محمود فهمي حجازي ، وكالة المطبوعات ، الكويت .

٢٠ – العين ، الخليل بن أحمد الفراهيدي ، تحقيق د. أبراهيم السامرائي ود. مهدي المخزومي ، بغداد ١٩٨٤

٢١– فصول في فقه اللغة . د. رمضان عبد التواب ٢ القاهرة.

٢٢– فقه اللغة وسر العربية ، الشابلي ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٣١٨ هـ.

٢٣– الفهرست، ابن النديم . طهران ١٩٧١

٢٤– في التفكير الصوتي عن الخليل ، د حلمي مراد ، مصر ١٩٨٨

٢٥– كتاب الفرق ، ثابت بن أبي ثابت ، تحقيق د. حاتم الضامن المورد غ / مج ١٣/ ١٩٨٤

٢٦– لسان العرب، ابن منظور، دار صادر ، بيروت

٢٧ – مختصر العين الأسى بكر الزبيدي، تحقيق د. صلاح مهدي الفرطوسي بغداد ١٩٩١

٢٨– المخصص الأبن سيدة، دار الفكر ، بيروت .

٢٩–المزهر في علوم اللغة / السيوطي / البابي الحلبي .

٣٠–معجم الأدباء ، ياقوت الحموي ، دار أحياء التراث العربي / بيروت.

٣١-من تراثنا المفقود – كتاب الجيم لأبي عمرو شمر بن حمدويه ي ، د. قاسم محمد كامل ، كلية التربية / جامعة ذي قار ، (بالآلة الكاتبة) ٢٠٠٤ .

هوامش البحث :

١-الفهرست ص ٤٨ .

٢-١المزهر ٨٤/١ .

٣-كلام العرب ص ١٢٩ .

٤-المعجم العربي ص ٣٠ .

٥-تهذيب اللغة ١ / ٤ .

٦-معجم الأدباء ١١ / ٧٤ .

٧-المصدر نفسه ١٦ / ٣١٨ ٣١٩ .

٨-الفهرست ص ٤٨ .

٩-المصدر نفسه والموضع .

١٠-تهذيب اللغة ١ / ٣٠ .

١١-ينظر : من تراثنا المفقود – كتاب الجيم ص ٦- ٨ .

١٢-الفهرست ٥٨ ، وذكر أبن النديم له كتاب آخر هو المدخل إلى كتاب العين

١٣-الجاحظ ص ٣٩٧.

١٤- الحيوان٢٥٣/٧ .

١٥ – البيان ، مقدمة المحقق ص ١٥ .

١٦ – ينظر : الجاحظ ص ٢٢٥ .

١٧ –ص ٢١ .

١٨ – البيان ١ / ٨٢ وقد عزا العلامة عبد السلام هارون هذا التفسير إلى الجاحظ ينظر الحيوان ٣٤/١ الهامش الرابع .

١٩ – الحيوان ٧ / ٢٣٤ وقد قال الجاحظ : هو من صفات الفيل العظيم الضخم وفي العين ٢ / ١١٣ : والعيثوم الضخم من كل شئ ، الشديد ، ويقال للفيلة .

الأنثى : عيثوم ويقال للذكر أيضا عيثوم .. والشطر من بيت للأخطل كما في الصحاح ١٩٨٠/٤ ولم يرد في ديوانه .

٢٠- ديوان بشر مس ١٦٠. وقد عزا لبن سيدة التفسير وانشاد البيت ألى أبن السكيت المنوفي ٢٤٦هـ ، ينظر المخصص ١٠٥/٤ .

٢١- يراجع فيه أقوال علماء اللغة اللسان (ظرب) ١/ ٥٧٠ – ٥٧١ وقد ذكر قول شمر : هي الظربان بكسر الراء ، وكذلك ضبطت في العين .

٢٢- ديوان النابغة ص ٤٨ .

٢٣ –هو طرفة كما في العين ٣ / ٢٨٣ ضمن خمسة أشطر وهي هنا بالفتح ، وليس في ديوانه.

٢٤ – الرجز ليس في ديوانه (ط البرقوقي) وهو في الصحاح (فشح)١ / ٣٩١ برواية العين منسوب لحسان .

٢٥– الذيخ بكسر الذال المشددة : ذكر الضبع الكثير الشعر .

٢٦– ديوانه ١٧٠ ، ونسب الخفاف بن عبد قيس البرجمي باختلاف وابة الصدر في كتاب الفرق الثابت ص ٩١ والصحاح (خند) واللفظ عند ثابت جوهري من الاضداد.

٢٧– الصحاح (جرر) . ونبه العلامة عبد السلام هارون أن (الجرار) في كلام الجاحظ غير متداول في معاجم العربية والمعروف الأجرار وقد قال تعالى (وأنبتكم نباتا) فلعل الجرار هو الاسم والأجرار هو ديوان عمرو ال معد يكرب الحدث كما في العين وفيه ويسمى ذلك التقليد : الاجرار ..

٢٨ –ديوانه ص ١٠٧ .

٢٩–ديوانه ٣٣٢.

٣٠– أبن عنمة الضبي كما في الصحاح ، وأسمه عبد الله كما في العباب (نشط) .

٣١– ديوانه : ص ٢٦.

٣٢– الرجز في الصحاح (غلل) منسوبا لدكين.

٣٣– ديوان الهذليين ١ / ١٤٩.

٣٤– ديوانه ١٧٣.

٣٥ –ديوانه ١٠٨.

٣٦ – ساقطة في الأصل، ويقتضيها السياق ، وقد عزا أبن سيدة التفسير وتشاهد إلى أبن السكيت ، ينظر المخصص١ / ١٢١.

٣٧–ديوانه ١١٩.

٣٨– ديوانه ص ٨٣.

٣٩–الحيوان ١٦٦/٧.

٤٠–المصدر نفسه ١٦٥/٧.

٤١– المصدر نفسه ١ / ١٥١

٤٢ – رسائل الجاحظ ١ /٣٥١

٤٣–الحيوان ١٢٣/٣ .

٤٤–المزهر ٤٨/١.

٤٥– ينظر معجم الأدباء ٢٧٤/١١.

٤٦– الفهرست ص ٤٨

٤٧– البيان والتبين ١/ ٢٥٢.

٤٨– الفهرست ص ٥١

٤٩ –ينظر الحيوان : ١/١٨٤–١٨٥/ ٢٦٩، ٤/ ٣٠٤.

٥٠– ينظر تهذيب اللغة ١١٠/١٥ ، وقد أفدت ذلك من تراثنا المفقود ص ٤.

٥١- وقد سبق إلى ذلك زميلنا د. قاسم محمد كامل إذ يقول : وبناء على ما قدمن فأننا يرى أن أي عندما قد أطلع على كتاب العين ، ولكن متى وكيف؟ من تراثنا المفقود ص٤ ، وقد سلف أن بينا ذلك في بعض مواضع البحث .

٥٣-كما أثبت الزميل د. قاسم محمد كامل في بحثة القيم من تراثنا المفقود ٠ ينظر في ذلك ص ٨.

٥٤-البيان ٦٩/١.

٥٥-العين ٦/٥.

٥٦-مقدمة تهذيب اللغة ١ / ٢٥.